في تحول الخطيب البغدادي من الحنابلة الى الاشعرية
دراسة تحليلية أولية

أ.د. مرتضى حسن النقيب أ.م.د. أسماء عبدالله غني
جامعة بغداد / كلية الآداب - قسم التاريخ

الملخص:

كان الامام أبو بكر البغدادي علامة فارقة في تاريخ التحديث وختامه سماعاً واجازة في بغداد خلال النصف الاول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وهو شيء يقر به اغلبية الكتاب ومحدثيهم بأنه خطيب بغداد ومحدثها بلا مبالغة او تهويل ، ويقول إنَ كل من تصدى له على مستوى ابن الجوزي وفرقائه من الحنابلة المتشددين من القصاص والوعاظ رواية وسماعا كان باطلا في علم الحديث لا يحسب له حساب في اماكن الحديث ومجالسه في الجوامع أو دور العلم والاسواق، سواء اكانت تابعة لقوى مجالس الحنابلة هناك أم لغيرها من مجالس اهل الحديث في المدينة.

الكلمات المفتاحية: الخطيب البغدادي الحنابلة، الاشعرية.

The transition of Albaghdadi Orator from Al-Hanbalis to Al-Ash'aris (Analytical Study)

Prof. Dr. Murtadha Al-Naqib Asst. Prof. Dr. Asma Abdallah Gany
University of Baghdad –C ollege of Art

Abstract:

In conclusion, Imam Abu Bakir Al-Baghdadi was a milestone in the history of science of Hadith. He was acknowledged and recognized in Baghdad early 5th Hijra century/ 11th century A.D. by most Muhaddithеen (Traditionists) as the orator of Baghdad and its Muhaddith without exaggeration. All what has been said against him by Ibn Al-Jawzi and his followers of extremists Hanbalis narrators and advisors whether heard or narrated was falls in Hadith science, falls allegations against him were uncountable in Hadith sessions places; mosques or scientific centers or markets, whether these sessions were in Hanbali sessions places or others of Hadith places in the city.

Keywords: Albaghdadi Orator, Al-Hanbalis, Ash'aris.

المقدمة:

الخطيب ابو بكر البغدادي شخصية شافعية معروفة ، كتب في التاريخ والطوبوغرافيا البغدادية، والحديث وعلم الكلام ، وهو مؤرخ ومحدث لا يبارى ، ففي التاريخ كتب مصنفه الكبير تاريخ بغداد عن تراجم علماء بغداد وزائريها من العلماء مشفعة بمقدمة ذكية عن طوبوغرافية المدينة ومعالمها العمرانية والحضارية ، ويعرف بقدرته الكبيرة في علم الحديث وسماعه وروايته من وجهة نظر اصحاب الشافعي بطبيعة الحال، ويشتهر بعلميته في علم الكلام من وجهة نظر الاشعرية ومذاهبها في الملل والنحل، إلا أنَ القليل من الباحثين ان لم نقل جميعهم توقف في الكتابة في مسألة تحول الخطيب من الحنابلة إلى الاشعرية ومهاجمة شخص كبيرها الامام احمد بن حنبل كأحد الفقهاء الاربعة مَما آثار سخط شيوخ الحنابلة ومقدميهم على رأسهم المصنف البغدادي الحنبلي عبد الرحمن بن الجوزي[١] وذيوله في طبقات الحنابلة وهو ما يستدعينا التوقف عند هذه الشخصية البغدادية الشهيرة ومعرفة الاسباب التي دفعته الى التحول من مذهب اهل بغداد الحنابلة الى الاشعرية ومعرفة دلالاتها العقلية والسياسية .

الهستريوغرافية الشرعية:

نحن بطبيعة الحال لا نكتب عن مطول تاريخ بغداد وتراجمه المتنوعة التي تبلغ اكثر من (٧٨٣١) ترجمة إذ كتب غير الخطيب عنها الكثير من المحدثين على رأسهم الاستاذ بشار عواد معروف[٢].

إلاّ إن الخطيب البغدادي شخصية اسلامية متبحرة ، عاش في مدينة بغداد ما يقرب من سبعة عقود بين السنوات (٣٩٢ – ٤٦٣هـ / ١٠٠١ – ١٠٧٠م) ، وعاصر اثنين من خلفاء بني العباس أيام سيطرة البويهيين والسلاجقة على دولة الخلافة ، كل من الخليفة القادر بالله بين السنوات (٣٨٢– ٤٢١هـ / ٩٩٢ – ١٠٣٠م) وولده الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٦هـ / ١٠٣٠ – ١٠٧٣م) .

ولقد كتب الكثير من الكتب والمصنفات عن الخطيب البغدادي[٣] ، او لنقل حظي من وقوع مدونات غير مكتملة بالكثير من المجلدات التي اتمها أواخر أيام حياته قبل بلوغ تبحره في سماع واجازة الحديث ، وفي عمل التاريخ والنظر والخلاف في الفقه الشافعي ، والخطيب يمتلك ثروة كبيرة ومال وفير ، ودفن عند دنو وفاته في مقبرة باب حرب موضع الحنابلة بالقرب من قبر بشر الحافي [٤] (ت ٢٢٧هـ / ٨٤١م) الصوفي المروزي الكبير .

هذا الامام الشافعي الكبير صنف عنه الكثير من المصنفات التي تناولت حياته، واحاديثه، وتاريخ المدينة التي ولد فيها : مصنفات كثيرة على نحو من اكرم ضياء العمري[٥] عن حياة

الخطيب البغدادي ، ويوسف العش[٦] عن الخطيب البغدادي ايضا وعبد العزيز الدوري[٧] ، فضلا عن اعداد من كتب الطبقات والتواريخ خاصة تاج الدين السبكي[٨] ، الذي يعده من بين رجال الشافعية الاشعرية المهمين ، ومن كتب التراجم ياقوت في معجم الادباء[٩] ، وابن خلكان[١٠] ، وابن العماد[١١] ، وفي دائرة المعارف الاسلامية[١٢] واخرون غيرهم .

فالخطيب البغدادي اشبع درسا وتحصيلا في شتى حقول المعرفة الانسانية خاصة في الحديث وسماعه والاجازة منه ، وفي مسائل النظر والخلاف إلا في مسألة واحدة لم يتناولها أحد من الباحثين تتناول التحول الذي أصاب الخطيب في الانتقال من المذهب الحنبلي الذي كان يوادعه من خلال رؤيته كمحدث كبير إلى المذهب الاشعري . والاشعرية التي ظلت غير معروفة لدى الباحثين ، وهو ما سنحاول تغطيته في هذه البحث المتواضع على الرغم صعوبة الكتابة في مفاصلها ودلالاتها العقلية والسياسية ، فماذا يوجد في الخطيب البغدادي من معلومات تساعدنا في الشروع بهذه المسألة الثيولوجية وحيثياتها قبل كل شيء ؟

لا تذكر كل المصادر التي تغطي تراجم الخطيب البغدادي واخباره في الوفيات شيء يسترعي الانتباه عن هذه المسألة ، فقط لدينا من المصنفين اثنين من المصادر يشيرون اليها بالكلام بصورة مباشرة أو غير مباشرة : واحدة مفصلة في ياقوت معجم الادباء ، وهو مصنف مهم محايد يقدم الاقوال كما هي في مصادرها ويعلق عليها ، والاخرى مختصرة في تاج الدين السبكي طبقات الشافعية الكبرى الذي صنفه المؤلف كإمام اشعري المعتقد يدافع عن المذهب الاشعري كثيرا في هذا المنحى .

ففي الحالة الاولى يقول ياقوت[١٣] نقلا عن ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) في المنتظم ان الخطيب كان قديما على مذهب احمد بن حنبل ، فمال عنه اصحابنا الحنابلة لما رأوا من ميله إلى المبتدعة وآذوه ، فانتقل إلى مذهب الشافعي وتعصب في تصانيفه عليهم ، فرمز الى ذمهم ، وصرح ما امكنه ، فقال في ترجمة شيخهم احمد بن حنبل سيد المحدثين وفي ترجمة الامام الشافعي تاج الفقهاء ، لكنه لم يذكر أحمد بالفقه وفي هذا الكلام خلط من الخطيب البغدادي وتجريح به .

ويذكر ياقوت في قول الشيخ حسين الكرابيس[١٤](ت ٢٤٥او ٢٤٨ هـ/١٨٥٩او ١٨٢٦م) أنه قال عن احمد بن حنبل : ايش نعمل بهذا الصبي ، إنْ قلنا لفظنا بالقرآن ، قال بدعة ، وإنْ قلنا غير مخلوق قال بدعة ، ثم التفت الى اصحاب احمد بن حنبل فقدح فيهم ما امكن[١٥] .

ويورد ياقوت كلاما حرفيا ممَا أدعى ابن الجوزي في انه قدح في الحنابلة وتأول له ، ويختم عن الشيخ ابي زرعة طاهر بن محمد المقدسي (ت ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) عن ابيه القول :

ثلاثة من الحفاظ لا احبهم لشدة تعصبهم، وقلة انصافهم، الحاكم ابو عبد الله أو ابن البيع[١٦] وابو نعيم الاصبهاني ، وابو بكر الخطيب .

وينهي ياقوت[١٧] الاقتباس من اقوال ابن الجوزي بصدق كلام اسماعيل المقدسي وصحة دعواه، وفي هذا المحتوى يعلق ياقوت[١٨] على العبارة بالقول عن هؤلاء الثلاثة من الائمة والشيوخ:" ان الحاكم كان متشيعا ظاهر التشيع والاخران بمعنى أبو نعيم الاصبهاني والخطيب البغدادي فكانا متعصبين للمتكلمين والاشاعرة ، وهو ما يخالف مذهب الامام احمد بن حنبل .

إنَ هذا الاقتباس من ياقوت يظهر بأن الخطيب البغدادي كان قبل تحوله لأي معتقد آخر على مذهب احمد بن حنبل ، ومن الحنابلة ، إلا أنَ اصحاب الحنابلة مالوا عنه ، لما رأوا من ميله الى المبتدعة وآذوه مما تسبب في تعصب الخطيب في تراجم تصانيفه عليهم وآذيتهم ، ولذلك يرمز الخطيب الى ذمهم والاعلان عن القدح بهم جهارا ، ويظهر الاقتباس كذلك الى نكران اعتبار الامام احمد بن حنبل من فئة الفقهاء من العلماء واقتصاره على جمهور المحدثين وحدهم دون الفقهاء ، واخيرا تظهر عبارة ياقوت القول إنَ الذم لا ينطوي على احمد بن حنبل وحده كمقدم للحنابلة، وإنما يشمل كذلك اصحابه الحنابلة الذين جاءوا من بعده على نحو من المثال في الشيخ الحنبلي حسين الكرابيس ومثل هذه الاقوال من الاقتباسات عند ياقوت نجدها مأخوذة من مصنف ابن الجوزي[١٩] لكن ما يزيد القول في الاخير بأن هناك شيئان يتنكر لهما ابن الجوزي نفسه[٢٠] : احدهما الجري على عادة عوام المحدثين في الجرح والتعديل وذلك لقلة مخاليفهم ، والثاني التعصب على مذهب احمد بن حنبل واصحابه الحنابلة.

أما لدى الاشعري تاج الدين السبكي الذي يناصر الخطيب البغدادي كشافعي اشعري ويحسن دعواه ضد مخالفيه ، فيذكر ان الحنابلة البغداديين كانوا قد تحاملوا عليه هو شخصيا وابتلى بمردوداته : "بوضع احاديث لا ينبغي بقول السبكي شرحها"[٢١] .

كيف نحلل هذه النصوص ونقيم بقيمتها التاريخية كمكونات تمثل التناقض القائم بين قوة الاشاعرة – الشافعية ممثلاً بتاج الدين السبكي ومخالفيهم من الحنابلة المحدثين ممثلاً بياقوت على نحو ما جاءت في ابن الجوزي في مصنفه المنتظم في اخبار الملوك والامم .

وفيما يخص لتاج الدين السبكي كان التحول في ضوء امام كبير من المحدثين كالخطيب البغدادي يمثل انتصارا كبيرا للأشاعرة خاصة في مكان كمدينة بغداد العباسية ، مركز الحنابلة المحدثين واتباعهم الذين كانوا في مركز قاعدتهم نيسابور يحاولون تثبيت قواهم في بغداد منذ ان تصدى لهم امام اهل السنة من الاشعرية ابو الحسن الاشعري (ت ٣٣٣هـ/٩٤٤م)[٢٢] بمقولته الشهيرة : اروى المذاهب المروية عن اهل الحق بلا كيف ، فكان تحول الخطيب كمحدث شافعي

اشعري لا يبارى بمنزلة نصر كبير لقوى المسلمين اهل السنة واطرافها لا يوازيها اي مجهود في مدينة مليئة بالاضطراب قيد أنمله وتحد كبير للمحدثين الحنابلة وشيوخهم آنذاك، وهذا النصر جاء في وقت تحول الخلافة العباسية من البويهيين الى السلاجقة الذين جاءوا من نيسابور للدفاع عن الحنفية من اهل السنة تجاه غرمائهم الشيعة والاسماعيلية بمللها المختلفة ، فكان تحول الخطيب البغدادي من محدث حنبلي الى امام شافعي اشعري بمنزلة نصر كبير لقوى الاشاعرة في قلب الخلافة العباسية وصنوفها في بلاد خراسان والمشرق العربي .

أما قوى الحنابلة ببغداد ممثلون بياقوت في ابن الجوزي فكان تحول امام كبير كالخطيب البغدادي في الحديث وشخصية شرعية كمحدث على مستوى الاجازة والسماع يعد بمثابة انتصار كبير لقوة صغيرة كالأشاعرة في بغداد لا يدانيه فيها احد من المشايخ المترجم لها حتى على مستوى شخص كبير في الحديث ببغداد كالإمام أحمد بن حنبل وكيف لا .

تدور اتهامات الحنابلة للخطيب في ضوء ما جاء في ياقوت وابن الجوزي بجملة امور مذهبية وشرعية أهمها ما يأتي :

١. تحول الخطيب البغدادي من محدث حنبلي كبير يدافع عن جماعته من المحدثين ، ببغداد إلى اشعري محدث يهاجم المحدثين الحنابلة وينازع دعواهم جهارا في بغداد، وهي احداهم مراكز الحنابلة المتواجدة على مستوى دار الاسلام ، ومثل هذا الامر يعد خسارة كبيرة للحنابلة المقيمين ببغداد واطرافها الغربية (باتجاه بلاد الشام).

٢. اعتبار التحول الذي اودعه أبو بكر الخطيب للمذهب الجديد كبدعة لا تقارن بخلفيات احد من الائمة المحدثين بما فيهم شخص الامام احمد بن حنبل نفسه .

٣. تقلص نفوذ الحنابلة ببغداد أيام نشاط الخطيب البغدادي ،وهو تراجع لكبير المحدثين في المدينة.

٤. كيفية مواجهة التحدي الجديد للأشاعرة الشافعيين ودلالاتها العقلية والسياسية.

ولنبدأ بمتابعة هذه الاتهامات الحنبلية قليلا من أجل القاء الضوء على مواقف الحنابلة من غرمائهم ومخالفيهم الاشاعرة منها واهميتها .

١- تحول الخطيب من محدث حنبلي كبير في سماع الحديث واجازته إلى اشعري محدث:

لم يدعو احد من الاشاعرة أن المصنف الخطيب البغدادي كان حنبلي المعتقد وتحول لظروفه الاجتماعية والدينية من مذهب ثيولوجي الى أخر من طائفة الحنابلة المحدثين إلى الاشاعرة الثيولوجين فقط الحنابلة أنفسهم ادعوا مثل هذا القول وعززوه بالأمثلة المناسبة على نحو ما يذكرها

ابن الجوزي الحنبلي المتشدد ، ويدونها ياقوت في معجمه للأدباء ، وهؤلاء الحنابلة يذهبون الى هذا المنحى ويدعون وقوعه اصلاً .

كان الخطيب البغدادي مؤرخاً وفقيهاً ومحدثاً مع غلبة الحديث اليه وكانت بغداد قد شهدت نشاط ثلاثة من المحدثين الكبار اثنان من فئة الشافعية وواحد حنبلي هم على التوالي بحسب ترتيبهم الزمني ، احمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/٨٥٥م) مقدم الحنابلة ومؤسس المذهب الحنبلي الذي يوصف بانه سيد المحدثين ، واثنان شافعيان في بغداد هما كل من مؤرخ الحديث الدار قطني (ت٣٨٥هـ/٩٩٥م) عمر بن علي الذي عرف بأنه امير المؤمنين من المحدثين ، وخلفه مؤرخ الحديث الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) الشافعي القريب من بعض شيوخ الحنابلة ومقدميهم في جامع المنصور . وفي رأي ابن خلكان[٢٣] "ان الخطيب البغدادي كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين ولو لم يكن له مصنف سوى التاريخ لكفاه" ، او في قول ابن النجار على نحو ما جاء في ابن خلكان[٢٤] : "انه كان قد انتهى اليه علم الحديث وحفظه" .

وكل هذه الاقوال سوى ادعاءات الحنابلة أو من اقتبس عنهم كياقوت استشهاداً تدلّ على ان الخطيب البغدادي لم يكن يوماً ما حنبلياً يقلد المحدثين على مذهب احمد بن حنبل على الرغم من كثرة شيوخ الحنابلة في بغداد، ثم تنكر لهم بالدعوة الى مذهب الاشاعرة ومجاهرة الحنابلة والتنكر لهم في تراجمه المعتادة بنية الكلام وقدحه.

٢-القول في البدعة لدى الحنابلة ودلالاتها العقلية والسياسية:

في هذا المحتوى نقول إنَ البدع آفة الثيولوجين من اهل الملك ومرد اتهامهم وردود الكيد عنهم وطبيعتها مزدوجة تقوم على الطعن والاذى والهجر المقابل، وتوقع دعاوي مفضوحة يتداولها الشيوخ على مستوى التدوين والقول المحض على مستوى انصارهم من الوعاظ والثيولوجين وهم اكثر من يستخدمها ويطول إجاباته عنها ، فهم من ائمة رجال الدين يطلقونها أكثر من أي قوة من اتباعهم الذين يوردونها للازدراء بفحوى الخطاب المعيب بمخاليفهم من اهل السنة والحشوية والمشبهة والزنادقة وما الى ذلك من الغلاة من اهل العلم ، ورجال الدين وعلى مستوى اقل يستخدمها لنقض الآخر وافشال دعواه واقواله ببذيء الكلام ودعاويهم، وهذا ما استشهد به ياقوت عن امر الحنابلة واكاذيبهم عن المخالفين على لسان اقوال ابن الجوزي وصحة دعواه .

فما هذه البدع لدى الحنابلة وما فحواها ؟ هذا ما يفصله لنا ياقوت بالقول على لسان ابن الجوزي في مسألة ما اذا كان القرآن مخلوق ام لا ، فيقول إنَ الحنابلة هم الذين مالوا عن الخطيب وتخلوا عنه عندما كان الخطيب قبل التحول على مذهب احمد بن حنبل يقر من خلال ميل الخطيب الصريح الى المبتدعة بحيث نفر منه الحنابلة وتركوه يبعث بعامة الارض سدى[٢٥] ،

والاكثر ان هؤلاء الحنابلة لم يكتفوا بمجرد اعتبار هذا الخطيب المبتدع من جيل المبتدعة ، بل لجأوا الى ايذائه بالمجالس وجرحه[٢٦].

ومن أجل ذلك ينحى ابن الجوزي منحى ياقوت إنّ الخطيب البغدادي تعصب في تصانيفه الكثيرة عليهم والدعوى الى ذمهم ، فادعى عن احمد بن حنبل بالقول فقط إنه سيد المحدثين ، بلا قول آخر عنهم ، او عن القول في ترجمة الشيخ الكرابيسي الى القول : إنّ قلنا لفظنا بالقرآن مخلوق ، قال المتحدث الحنبلي انه بدعة ، وإنْ قلنا غير مخلوق قال ايضا بدعة وهو ما يدعون الى القول من هؤلاء الحنابلة يدعون الى عدم التمييز في كلام الله بالقرآن الكريم بين المخلوق من عدمه ، وهو ما ذهب اليه ياقوت الى القول إنَ الخطيب مع سابقه الدارقطني كانا يتعصبان للمتكلمين والاشاعرة، والتقليل من اهمية الخطيب وضعف مصداقيته.

ويورد ياقوت رواية منسوبة الى ابن طاهر المقدسي عما اذا كان أبو بكر الخطيب على منوال تصانيفه في الحفظ، وكان الجواب : أنّ الخطيب إذا سألناه عن شيء اجابنا بعد ايام ، وإنْ الححنا عليه غضب ، وينطوي على نفور لا أنس فيه"[٢٧].

وهكذا نرى أنّ البدع لدى الثيولوجين المسلمين تتفاوت من متكلم اصولي الى آخر، ومن شيخ الى ثاني، إلاّ أن الحنابلة في مصداقية القول شكوا عن اقوال الخطيب ونسبوه الى المبتدعة الحشوية [٢٨].، وهو ما يخالف رأي المصنفين القدامى في دعواهم الكلامية من ان الخطيب البغدادي ومصنفاته الكثيرة تتجاوز في اصدق الاقوال اكثر من ستة وخمسين مصنفاً .

٣-القول عن تقلص نفوذ الحنابلة المحدثين:

في ضوء التراجع الكبير للمحدثين الحنابلة في المدينة ، الذي شهد عصر حياة الخطيب البغدادي وسيرته تقلصاً كبيراً في نفوذ الشيوخ المحدثين ونشاطهم الثيولوجي على الرغم من مؤازرة الخلفاء العباسيين كالقادر والقائم للحنابلة ومشاركة نشاطهم من خلال الاعتقاد القادري الذي ظهر في ديوان الخلافة في سنة (٤٠٣هـ/١٠١٢م)، أو الاعتقاد القائمي في سنة (٤٤٤هـ/١٠٥٢م) بسبب نجاح الخطيب كمحدث كبير لا يبارى في مجالس بغداد واطرافها في المقابل نفوذ حنبلي كبير بين الحنابلة انفسهم يناقشه في الرئاسة وطول الباع ، ويقول عنه ياقوت[٢٩] إنَ الخطيب به ختم ديوان المحدثين .

والحقيقة أنّ الخطيب البغدادي كان قد أمضى أيام حياته الأولى في الرحلة بطلب العلم[٣٠]، العلم[٣٠]، عندما تعرف فيها على كبار المحدثين في مدنهم حتى وقت شيوعه كمحدث كبير ، وهو لا يتجاوز العشرين من عمره ، ورحل إلى جملة من مدن دار الخلافة في العراق وفارس ، وتعرف فيها على المحدثين سماعاً واجازة حتى صار أوحد زمانه في هذا الحقل وهو ما يقابله صراع

المحدثين الحنابلة فيما بينهم حتى توج المذهب بمقدمين ليسوا ذو شأن يذكر كأبو محمد البربهاري (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٦م) والشريف ابو جعفر الهاشمي (ت٤٧٠هـ/١٧٨م) [٣١] ثم التحول لاحقا من نشاط ومجالس الحنابلة للدرس والتحصيل على غيرهم من اهل المعتقد على نحو من دراسة الحنبلي البغدادي ابو الوفا بن عقيل[٣٢] الذي درس على الشيخ الكبير ابن الوليد المعتزلي[٣٣] (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) مما تسبب في ضجة كبيرة تجاهها اودت في النهاية الى تراجع ابن الوليد شخصياً على الرغم من الخلافات التي كانت قد وقعت خلالها، مما تسبب في تدخل الخليفة القائم بالمسألة[٣٤].

والآن كيف آلت زعامة الحديث ورئاسته الختامية في بغداد للخطيب البغدادي، وفي تراجع الحنابلة المحدثين وتقهقرهم في هذا القرن الخامس الهجري ؟

كان الخطيب قبل وصول الزعامة الختامية في الحديث اليه ، قد طلب اذنا[٣٥]من الخليفة القائم للجلوس في جامع المنصور لمجالسة الحنابلة المحدثين بديوان الخلافة لمحاججتهم واخذ الدعوى عليهم ، وكان ذو صلة ببعض رجال الادارة كرئيس الرؤساء ابو القاسم بن المسلمة (ت٤٥٠هـ/١٠٥٧م) ، وغيرهم من رجال الادارة، وفي هذا المحتوى بدأ اولا بمجالسة شيوخ الحنابلة ومقارعتهم واخذ الحجة عليهم، مما ادى الى تذمر هؤلاء الشيوخ ومواجهة سخطه عليهم ، وكان اذى الحنابلة للخطيب البغدادي كبيراً بحيث اجبره الى الاختفاء مدة والانتقال الى الشام احياناً اخر ، الى وقت عودته الى حاضرة الخلافة العباسية مرة اخرى اواخر ايام حياته ووفاته هناك، وحتى في هذا الوقت من سيرته تصدى له الحنابلة وآذوه وهو في موضوع التحضير لدفنه .

والواقع أنَ الخطيب البغدادي كسب المعركة مع الحنابلة على نحو ما يراها هو شخصياً وجمهور القراء معه ، ولم يزد حتى عن وقت وفاته في (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) عندما تولى مريدوه زعامة الاشعرية من الشافعية ، إلاّ أن الحنابلة على الرغم من هذا التراجع بقوا قوة كبيرة لا يدانيها أحد من أهل الفرق لمجابهتهم والتصدي لهم سوى امام كالخطيب البغدادي ومؤهلاته العلمية والشرعية المتنوعة.

٤-كيفية مواجهة التحدي الجديد للأشاعرة ودلالاتها العقلية والسياسية:

إنَ الخطيب البغدادي كمؤرخ بغداد ومحدثها الختامي يعد من شيوخ الشافعية – الاشعرية بلا منازع ، وظل طوال سيرة حياته بهذه التسمية ، ولكن وفاته ونهاية حياته في بغداد فتحت الباب مجدداً لحالة من النزاع بين الحنابلة الثيولوجيين ومخالفيهم من الاشاعرة الاصوليين ، اما كيف حصل هذا النزاع مجدداً ، وما اهميته الكلامية فنقول :

بالنسبة للتاريخ الثيولوجي للمدينة وهو ما نحاول تحليله وتقويمه على نوع من الاختصار.

إنَّ ابا بكر الخطيب كان خاتمة المحدثين على نحو ما يشهد بذلك اقوال المؤرخين من غير الحنابلة ولدينا شهادات في هذا المحتوى تدلل على صدق هذا القول على نحو ما ذكره محمد بن عبدالملك الهمداني[٣٦] (ت٥٢١هـ/١١٢٧م) عن رئيس الرؤساء للخليفة القائم ابو القاسم بن المسلمة[٣٧](ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الذي تقدم بقائمته الى القصاص والوعاظ في المدينة انه لا يورد حديثاً عن الرسول (ﷺ) إلا ويعرضه على الامام ابو بكر الخطيب البغدادي " مثلما امرهم – الخطيب بإيراده والامثلة على ذلك كثيرة تعزز القول وتؤيده .

إلا إنَ غياب الخطيب ووفاته فتح الباب مجدداً بشأن النزاع بين الحنابلة وغرمائهم من الثيولوجين الحنابلة من اهل الملك والحكم بالمدينة كالنزاع الذي حصل بين المؤرخ البغدادي الحنبلي ابو الوفاء بن عقيل (ت ٥١٣هـ/١١١٩م) ومقدم الحنابلة الشريف ابو جعفر الهاشمي[٣٨] (ت٢٧٠هـ/١٠٧٧م) عندما تصدى مقدم الحنابلة للأمر لمحاولات ابن عقيل عند دراسة علم الكلام المعتزلي والعلوم الاخرى على يد المعتزلي الكبير ابو علي الوليد[٣٩] (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) وتراجع ابن عقيل ومحاولة التوبة لمقدمهم الشريف الهاشمي ، وهي معلومات وردت تفاصيلها ضمن حوادث ابن الجوزي في العام (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) بخصوص المصالحة التي كان قد تبناها ابن عقيل على نحو ما وردت في ابن الجوزي [٤٠] التي لم يتقبلها مقدم الحنابلة الشريف ابو جعفر الهاشمي على الرغم من تدخل ابن عمه الخليفة القائم في المسألة ذاتها [٤١] .

وكان الخطيب البغدادي يريد ان يملي الحديث سماعاً في جامع المنصور أحد أهم مراكز الحنابلة في مدينتهم، وهو ما سمع به شخصيا الخليفة القائم عند سماع حالهم الطلبة بأن يؤذن له ذلك في المجلس وجرى الاذن من الخليفة طبقاً لذلك واستحقاقاته[٤٢] رغم معارضة الحنابلة لذلك على ما نعرف .

إلا إنَ الحقيقة تبقى ان وفاة الخطيب البغدادي ونهايته المفجعة كخاتم في الحديث كان يعد بمثابة خسارة كبيرة لقوى الشافعية البغدادية التي ينتمي اليها شخصيته كأشعري اصولي ومحدث ختامي لعلماء بغداد وجالسيهم في جامع المنصور وبطبيعة الحال الجوامع الدينية الاخرى .

والحقيقة أنَ الحنابلة انفسهم في بغداد كانوا قوة سياسية كبرى خاصة بين العوام ومريديهم من اهل السوق في المدينة إلاّ أن هناك فرق كبير بين تلك القوى التي كان يخص بها الحنابلة في بغداد واطرافها وبين شخصية الخطيب ومؤهلاته العلمية والكتابية التي لا يمكن أن تتساوى مع هؤلاء العوام من الحنابلة ومن لف لفهم من رجال اهل المدينة وشيوخهم .

الخاتمة:

وفي الختام نقول كان الامام ابو بكر البغدادي علامة فارقة في تاريخ التحديث وختامه سماعاً واجازة في بغداد خلال النصف الاول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وهو شيء يقر به اغلبية الكتاب ومحدثيهم بأنه خطيب بغداد ومحدثها بلا مبالغة او تهويل ، ويقول ان كل من تصدى له على مستوى ابن الجوزي وفرقائه من الحنابلة المتشددين من القصاص والوعاظ رواية وسماعا كان باطلا في علم الحديث لا يحسب له حساب في اماكن الحديث ومجالسه في الجوامع أو دور العلم والاسواق سواء اكانت تابعة لقوى مجالس الحنابلة هناك أم لغيرها من مجالس اهل الحديث في المدينة.

الهوامش:

(١) ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٧٩هـ/ ١٢٠٠م) ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم، (حيدر اباد الدكن :١٣٥٩هـ) ج٨، ص٢٧٠.

(٢) انظر عن سيرة حياته :الذهبي ومنهجه في كتابة تاريخ الاسلام ،(القاهرة :١٩٧٦).

(٣) انظر عن سيرة حياته ، ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)،العبر في خبر من غبر ، تحقيق :صلاح الدين المنجد ، ط٢(الكويت : مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٤٨)، ج٣،ص٢٥٥؛ انظر: سير أعلام النبلاء ،تحقيق : شعيب الاناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط٩(بيروت :مؤسسة الرسالة ،١٤١٣هـ)، ج١٨ ، ص ٢٧٠؛ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (بيروت : دار صادر ، بلا ت)، ج١،ص٩٣.

(٤) وهو ابو نصر بشر بن الحارث الحافي احد كبار رجال التصوف اصله من مرو ولكنه ارتحل الى بغداد واستقر بها ايام العباسيين الى ان توفى سنة (٢٢٧هـ/٨٤١م) .لمزيد عن سيرته انظر:ابو نعيم احمد بن عبدالله الاصبهاني (٤٣٠هـ/١٠٣٨م)، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ،ط٤(بيروت :دار الكتاب العربي،١٤٠٥هـ)،ج٨ ،ص٣٣٦.٣٦٠.

(٥) موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، ط٢ (الرياض : دار طيبة ، ١٩٨٥) .

(٦) الخطيب البغدادي ، مؤرخ بغداد ومحدثها ، (دمشق : ١٩٤٥) .

(٧) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، (بغداد : مطبعة الرابطة ، ١٩٤٥) .

(٨) طبقات الشافعية الكبرى ، (بيروت : دار المعرفة ، بلا ت) ، ج٣ ، ص١٢ – ١٦ .

(٩) معجم الادباء ، (بيروت : دار احياء التراث العربي، بلا ت) ، ج٤ ، ص١٣ – ٤٥ .

(١٠) وفيات الاعيان، ج١ ، ص٩٢ – ٩٣ .

(١١) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، (بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩) ، ج٣ ، ص٣١١ – ٣١٤ .

(١٢) أنظر (R. Sellhein) ، عن الخطيب البغدادي في E I ، ص١١١١ – ١١١٢ .

(١٣) معجم الادباء ، ج٤ ، ص٢٥ – ٢٦ .

(١٤) الفقيه البغدادي أبو علي الحسين بن علي بن يزيد صاحب التصانيف ، وكان في بحور العلم ذكيا فطنا فصيحا له تصانيف في الفروع والاصول تدل على تبحره ، وهو أول من فتق اللفظ وقال في القرآن لفظي به مخلوق ، توفي سنة ٢٤٥ / ١٨٥٩م وقيل ١٨٢٦/٢٤٨م ، للمزيد انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج١٢ ، ص٧٩ – ٨٢.

[١٥] معجم الادباء ، ج٤ ، ص٢٠ .

[١٦] وهو ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن نعيم الحاكم الضبي النيسابوري المعروف بالحاكم النيسابوري او ابن البيع اصله من نيسابور ثم رحل الى العراق و خراسان وما وراء النهر لطلب الحديث والسماع من شيوخها حتى عد احد كبار المحدثين اشتهر من خلال ذلك بكتابه وهو المستدرك على الصحيحين ، كما اتقن الفقه الشافعي على العقيدة الاشعرية ، وله مصنفات كثيره اهمها تاريخ نيسابور توفى سنة (٤٠٥هـ/١٠١٤م) .لمزيد عن سيرته انظر: ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن عساكر الدمشقي(٥٧١هـ/١١٧٥م)، تبين كذب المفتري فيما نسب الى الامام ابي الحسن الاشعري ، تحقيق : احمد حجازي السقا ، ط١(بيروت :دار الفكر ،١٩٨٨)،ص٢٢٦.

[١٧] معجم الادباء ، ج٤ ، ص٢٦ .

[١٨] معجم الادباء ، ج٤ ، ص٢٦ ، قارن القول عن الاشعرية بالشافعية اعلاه .

[١٩] المنتظم في اخبار الملوك والامم ، ج٨ ، ص٢٦٨ .

[٢٠] م. ن ، ج٨ ، ص٢٦٨ .

[٢١] طبقات الشافعية الكبرى ، ج٣ ، ص١٤ .

[٢٢] قارن بمونتغمري وات ، ابو الحسن الاشعري في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة.

[٢٣] وفيات الاعيان ، ج١،ص٩٢.

[٢٤] م . ن ، ج١،ص٩٣.

[٢٥] معجم الادباء ، ج٤ ، ص٢٦ .

[٢٦] م. ن ، ج٤ ، ص٢٦ .

[٢٧] م. ن ، ج٤ ، ص٢٧ .

[٢٨] الحشوية هم الغلاة المجسمة المتطرفة الذين يؤمنون بالتجسيم او الحشوية .

[٢٩] م. ن ، ج٤ ، ص١٥ .

[٣٠] سمع ببغداد شيوخ وقته وبالبصرة وبنيسابور والكوفة ، ورجال نيسابور في سنة خمس عشرة واربعمائة وغيرها من المدن . انظر :ياقوت ، معجم الادباء ، ج٤ ، ص١٥ .

[٣١] عن سيرته كمقدم حنبلي . انظر: ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص٣١٥-٣١٧.

[٣٢] وهو شيخ الحنابلة ابو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبدالله البغدادي الظفري المتكلم صاحب التصانيف، وله مسجد مشهور باسمه في الظفرية ، ولد سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م ، وكان يتوقد ذكاء وبحر معارف وكنز فضائل ومصنفه كتاب الفنون هو ازيد من اربع مائة مجلد حشد فيه كل ما يجري له مع الفضلاء والتلامذة وما ينسج له من الدقائق والغوامض توفي سنة (٥١٣هـ/١١١٩م) . انظر: الذهبي ، سير، ج١٩ ، ص٤٤٣-٤٤٤.

[٣٣] وهو ابو علي محمد بن احمد بن عبدالله بن احمد بن الوليد الكرخي المتكلم ، ولد سنة (٣٩٦هـ/١٠٠٥م) واتقن علم الاعتزال عن ابي الحسن البصري ، وكان يلبس القطن الخام وداعية الى الاعتزال ويعرف المنطق جيداً، وكان زاهداً ورعاً ، لم يعرف في زمانه مثل ورعه ، توفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م). انظر:الذهبي، سير، ج١٨، ص٨٩-٤٩٠ .

[٣٤] عن هذه الخلافات بين الحنابلة ومقدمتهم الشريف ابو جعفر الهاشمي . انظر: ابن الجوزي، المنتظم ، ج٨، ص٣١٥ . احوال سنة ٤٦٥هـ.

[٣٥] فتقدم الخليفة الى نقيب النقباء بأن يؤذن له في ذلك . انظر: ياقوت ، معجم الادباء ، ج٤ ، ص١٦ .

[٣٦] وهو شافعي ، مصنف باسم محمد عبدالملك بن ابراهيم الهمداني (٤٦٣-٥٢١هـ/١٠٧٠-١١٢٧م) روى عنه الحافظ الاصولي ابن عساكر ، وله عدد من المصنفات كالذيل على تاريخ الطبري ، والذيل عمله الوزير ابو شجاع لتاريخ ابن مسكويه ، ومصف بعنوان السير واخبار الوزراء وطبقات الفقهاء وعن سيرته . انظر: ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٠ ، ص٢ الذي يطعن فيه ؛ تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج٤ ، ص٨٠-٨١ .

[٣٧] ياقوت ، معجم الادباء ، ج٤ ، ص١٩ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص٢٠٠ ، استوزره الخليفة القائم ولقبه لم يكن وزير بعد اذ كان يسمى رئيس الرؤساء شرف الوزراء.

[٣٨] ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص٣١٥-٣١٧ .

[٣٩] انظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص٢٠ ، حوادث سنة ٤٧٨هـ.

[٤٠] م. ن ، ج٩ ، ص٢٠ .

[٤١] م.ن ، ج٨ ، ص٢٧٥-٢٧٦ .

[٤٢] ياقوت ، معجم الادباء ، ج٤ ، ص١٦ .

المصادر والمراجع:

❖ الاصبهاني ، ابو نعيم احمد بن عبدالله بن احمد (٤٣٠هـ/١٠٣٨م)، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ،ط٤، بيروت :دار الكتاب العربي،١٤٠٥هـ .

❖ ابن الجوزي ،ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر اباد الدكن :١٣٥٩هـ.

❖ ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، بيروت : دار صادر ، بلا ت.

❖ الدوري ، عبد العزيز ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، بغداد : مطبعة الرابطة، ١٩٤٥.

❖ الذهبي ، ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

١. العبر في خبر من غبر ، تحقيق :صلاح الدين المنجد ، ط٢، الكويت : مطبعة حكومة الكويت ، .١٩٤٨

٢. سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط٩، بيروت: مؤسسة الرسالة ،١٤١٣هـ.

❖ السبكي ، تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن ابي الحسن علي بن عبد الكافي (٧٧١هـ/١٣٦٩م)، طبقات الشافعية الكبرى ، بيروت : دار المعرفة ، بلا ت.

❖ العش، يوسف، الخطيب البغدادي ، مؤرخ بغداد ومحدثها ، دمشق : ١٩٤٥.

❖ ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن عساكر الدمشقي(٥٧١هـ/١١٧٥م)، تبين كذب المفتري فيما نسب الى الامام ابي الحسن الاشعري ، تحقيق : احمد حجازي السقا ، ط١، بيروت :دار الفكر ،١٩٨٨.

❖ ابن العماد، ابو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩.

❖ العمري ، اكرم ضياء، موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، ط٢ ، الرياض : دار طيبة ، ١٩٨٥.

❖ ياقوت ، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي(٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم الادباء ، بيروت : دار احياء التراث العربي، بلا ت.

❖ (R. Sellhein) ، عن الخطيب البغدادي في E I.